طاهر، يدفع إلى هذا الاتجاه بواسطة لعبة المسافة واللون والحجم: فهذه العناصر الثلاثة، انطلاقاً مما يمكن تسميتُه باللَّبْس مرةً أخرى، تضلِّل القارئ وتغشى بصره، فتتحوّل **ذاكرة الجسد إلى ذاكرة الحسد**. فالعنوان كله مكتوب باللّون الأسود باستثناء نقطة الجيم التي كُتبتْ باللّون البنيّ، كما أنّها كُتبتْ بمقياس أكبر من ذلك الذي كُتبتْ به نقطةُ الدالّ، الشيء الذي يَدْفع إلى الاعتقاد بأنّها ليست جزءاً من العنوان. ومما يزيد في تأكيد هذا الاعتقاد ابتعادُ النقطة عن حرفها بمسافة أكثر من تلك التي تَفْصل عادةً بين الجيم ونقطتها، هذا دون الحديث عن شكلها الذي يجعلها قريبةً من زخارف الكتاب الأخرى التي لا علاقة لها بالحروف، عازلاً إيّاها بذلك عن العنوان ومحوِّلاً إياها إلى مجرّد جزء من فسيفساء الغلاف.

والحسد ليس سوى تسمية أخرى لنوع الرغبة الثلاثيّة التي تحدثتْ عنها الرواية صراحةً. فالحسد، هو الآخر، يفترض توفر ثلاثة عناصر: الموضوع، والذات، والشخص الذي يمارَسُ عليه ذلك الحسدُ. وإذا أردنا صياغة هذه العناصر بلغة أخلاقيّة سميناها بالنعمة والحاسد والمحسود، ومن هنا نقول مع روني جيرار إنّ كل حسد هو رغبة محاكاتيّة «désir mimétique»، وإنْ كان من المتعذِّر فهمُ كل رغبة محاكاتيّة على أنّها حسد[1]. والرواية التي نحن بصددها، وإنْ لم تذهبْ بعلاقة الرغبة إلى أقصى حدودها كما هو الشأن عند دوستويفسكي أو شكسبير مثلاً، وذلك على مستوى المنافسة والصراع والعنف والانتقال من الأخوّة إلى العداوة، فإنّها على الرغم من ذلك حاضرةٌ في كلا الجزئَيْن بصيغ مختلفة. ففي الجزء الأوّل ثمة حسد/غيرة تستقرّ بين الرسام الجزائريّ وزياد الفلسطينيّ، ثم توقفت باستسلام الأول (الوسيط)، وموت الثاني (الذات) واختفاء ابنة السي الطاهر (الموضوع) التي تزوجتْ بالضابط.

وهذا الفراغ العاطفيّ هو الذي سيؤدّي إلى بزوغ علاقة ثلاثيّة أخرى في الجزء الثاني من الرواية، يكون فيها الزوجُ شبهَ منعدم، ويَحْضر فيها بقوّةٍ صاحبُ المعطف الأسود وصديقُه صاحبُ البذلة البيضاء الذي أحبّته ابنةُ السي الطاهر وأخطأتْ فارتبطتْ بصديقه. وإذا اتفقنا على أنّ البطلة هي موضوع رغبة الصديقَيْن، فإنّ الوسيط سيكون الصحفيّ الذي سيُقتل في نهاية الرواية، بينما يحتلّ صاحبُ البذلة السوداء موقع الذات المتعلِّقة بالموضوع تعلقاً حميميّاً، وسيحوّله إلى شبه نسخة منه. إنّ المحاكاة إذا كانت تفرِّق بين الأشخاص وتخلق بينهم نوعاً من المنافسة التي قد تتطوّر إلى عنف أحياناً، قد تقرِّب بينهم أيضاً محيلةً إياهم إلى

١ - أنظر مقدمة كتابه: **Shakespeare: Les feux de l'envie**, Paris, éd. Grasset, 1990.

لا أساس للاتّهامين

تابعتُ في الصحف وقائع القضية التي أثارها كاتبٌ تونسيّ في صحيفة جزائريةٍ مشكّكاً في أبوّة رواية ذاكرة الجسد للكاتبة الجزائريّة أحلام مستغانمي، ومثيراً الريبة في أن يكون كاتبها هو الشاعر سعدي يوسف، مستنداً في اتهامه إلى تصريحات زَعَمَ أنّ الشاعر تحدّث فيها عن تدخّله في كتابة نصّ الرواية ومستشهداً بقصيدة أثبتها الشاعر في أحد دواوينه الأخيرة.

ولما كان الشاعر سعدي والروائيّة أحلام صديقَيْن لدار الآداب، وفيها نشرا آثارهما أو بعض آثارهما الأدبيّة، فقد رأيتُ أن أدلي بشهادتي في هذه القضية لأعلن أنه كان يكفي سعدي أن يكذّب الخبر وينفي وقوعه (وهذا ما فَعَله) حتى نضع حدّاً لهذه المعركة.

كانت دار الآداب قد تنبّأتْ في عام ١٩٧٦ حين نشرتْ مجموعة الكتابة في لحظة عري بأنّ أحلام مستغانمي سيكون لها شأن هامّ في الإبداع الأدبيّ. وبالرغم من انقطاعها عن النشر فترة طويلة، فإنّني لم أفاجأ حين زارتني عام ١٩٩٥ حاملةً إليّ مخطوطة ذاكرة الجسد، فوجدتُ فيها عملاً روائيّاً ممتازاً، ولم يداخلني أيّ شك في أن يكون سواها قد كَتَبَ هذا العمل، لأنّي واثق بموهبتها. وأن يكون سعدي يوسف أو سواه قد تدخّل في النصّ ببعض الاقتراحات لكلمات أو عبارات، فإنّ هذا لا يبرّر له ادّعاء ما ينسبه إليه الكاتبُ التونسيّ. فالحقّ أنّ كثيرين من المؤلّفين يستأنسون بآراء أصدقاء لهم في مخطوطاتهم قبل دَفْعها الى النشر. ونعتقد أنّ الشاعر سعدي يوسف بما يملك من طاقة الإبداع لا يحتاج إلى تبنّي عملٍ ليس له، كما أنّ أحلام مستغانمي أثبتتْ بهذه الرواية وبروايتها الأخرى فوضى الحواس أنها جديرة بالتقدير وغيرُ محتاجة هي الأخرى إلى الاتكاء على سواها. وأنا أشهد أنّ أحلام كانت قليلاً ما تأخذ بالتعديلات التي كنتُ أقترحها عليها وأنا أراجع أعمالها الأدبيّة.

لقد أسالت هذه القضيةُ من الحبر أكثرَ مما تستحقّ، وأقترح على الصديقَيْن سعدي وأحلام الانصراف عنها إلى مزيد من الإبداع الذي وحده يؤكد استحقاقهما الشهرةَ الواسعةَ التي يتمتعان بها في أدبنا العربيّ الحديث*.

سهيل إدريس

* - نشرتْ بعض الصحف اتهاماً آخر وجّهته بعض الكاتبات إلى أحلام مستغانمي، ومفاده أنّ الذي كتب لها رواية **ذاكرة الجسد** هو الشاعر نزار قباني. وهذا ادّعاء لا أساس له هو أيضاً. فقد كنتُ أنا مَنْ أهدى إلى المرحوم نزار نسخةً من هذه الرواية يوم صدورها، فكتب عنها التعليق، الذي نُشر على قفا غلاف الطبعات التالية من الرواية؛ وهذا ما قد يكون أوهَمَ البعض بأن الشاعر هو الذي كتب الرواية!.